الانتحار

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حدّث المسيّب بن رافع الكوفي قال: بينا أنا يوماً في مسجد الكوفة، ومعي سعيد بن عثمان، ومجاهد، وداود الأزدي، وجماعة — أقبل فتى فجلس قريباً منا، وكان تلقاء وجهي؛ لا أمدّ نظري إلا انطلق في سمْتِه ووقف عليه؛ وكنا نتحدّث، فرأيته يتسمّع إلى حديثنا؛ فلما تكلّم سعيد، وكان خافت الصوت من علّة به، وكنا نسمّيه النملة الصّخّابة — رأيت الفتى يتزحّف قليلاً قليلاً حتى صار بحيث يقع في سماعه حسيس كلمتنا

وكان سعيد يقول: اجتزت أنا والشعبي[1] أمس بعمران الخيّاط، فمازحه الشيخ فقال له: عندنا حِبٌّ[2] مكسور، تخيطه؟ قال: نعم، إن كان عندك خيطٌ من ريح! فقلت أنا: فاذهب جئنا بالمغزل الذي يغزل الهواء لنصنع لك الخيط

قال مجاهد: هذا ليس بشيء في تنادر شيخنا وما يتّفق له؛ أخبرني أن رجلاً جاءه في مسئلة، فدخل عليه البيت وهو جالس مع امرأته؛ فقال الرجل: أيّكما الشعبي...؟ فأومأ الشيخ إلى امرأته وقال: هذه...!

قال المسيّب: وضحكنا جميعاً، وأخذ نظري الغلام فاذا هو ناكس حزناً وهماً، وكأنه لا يتسمّع إلينا ليسمع، بل ليشغل نفسه عن شيء فيها، فتتوزّع خواطره، فيتبدّد اجتماعها على همّه، بصوتٍ من هنا وصوتٍ من هنا، كما يفعل المحزون في مغالبة الحزن ومدافعته، يشغل عنه بصره وقلبه وسمعه جميعاً، فيكون الحزن فيه وكأنه بعيد منه

فقلت في نفسي: أمرٌ أمات الضحك في هذا الفتى وكسر حِدّته وشبابه. ثم تحوّلت إليه وقلت: رأيتك يابنيّ مقبلاً علينا كالمنصرف عنا؛ فما بالك لم تضحك وقد ضحكنا جميعاً؟

قال: إليك عني ياهذا. وأين مني الضحك وأنا على شفير القبر، وروح التراب ملء عينيّ في كل ماأرى. وكأنّ حفرتي ابتلعت الدنيا التي أنا فيها لتأخذني فيها، وأنا الساعة ميتٌ حيٌّ؛ رجلٌ في الدنيا ورجلٌ في الآخرة!

قلت: فأعلمني مابك يابني؛ فلقد احتسبت ولداً لي كان في مثل سنّك وشبابك ولم أرزق غيره، فقلبي بعده مريضٌ به، يتوسّمه مفرّقاً في لِداته متوهّماً أن وجوههم تجمعه تلاحه؛ فأنا من ذلك أحبّهم جميعاً وأطيل النظر إليهم والتأمّل في وجوههم، ولست أرى أحداً منهم إلا كان له ولقلبي حديث! فان رأيته حزيناً مثلك تقطّعت له من إشفاق ورحمة، وطالعني فتاي في مثل همّه وحزنه وانكساره؛ فيعود قلبي كالعين التي غشّاها الدمع، تحمل أثر الحزن ومعناه وسِرّه، فبثّني ماتجد يابنيّ، فلعل لي سبباً إلى كشف ضرّك أو إسعافك بحاجتك؛ ولعلك تكون قد حزنت من أمرٍ قريب المتناوَل هيّن المحاولة، لم يجعله عندك كبيراً أنه كبير، ولكنْ أنك أنت صغير

قال الفتى: مهلاً ياعمّ، فان ما نزل بنا مما تنقطع عنده الحيلة ولا تنقاد فيه الوسائل، ولا علاج منه بالموت يأخذنا ويأخذه

قلت: يابنيّ، هذه كلمة ما أحسب أحداً يقولها إلا من أُخِذ للقتل بجنايته ولم يعْفُ أهل الدم، فهل جنيت أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إن الأمر قريبٌ من قريب، فاني تركت أبي الساعة مُجمِعاً على إزهاق نفسه، وقد أغلق عليه الدار واستوثق من الباب!

قال المسيّب: فكأنما لدغتني حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرت أن يكون رجلٌ مسلمٌ يقتل نفسه؛ فتناهضت، ولكنّ الغلام أمسك بي وقال: إنه لا يزال حياً وسيقتل نفسه متى أظلم الليل وهدأت الرِّجل

قلت: الحمد لله، إن في النور عقلاً، ولكنْ ما الذي صار به إلى ماقلت، وكيف تركته لقدَره وجئت؟

قال الفتى: إنه قال لي: ياولدي، ليس لك أبٌ بعدي؛ فان

---

(١) هو الامام العظيم (عامر بن شراحيل الشعبي) توفي سنة ١٠٣ للهجرة أو حولها، عن بضع وثمانين سنة، وكان في عصره أحد العلماء الأربعة في الاسلام: سعيد بن المسيب في المدينة (ذكرناه في قصة زواج)، والحسن البصري في البصرة (ذكرناه في قصة: بنته الصغيرة) ومكحول في الشام، والشعبي هذا في الكوفة. وكان يشبه في زمانه ابن عباس في زمانه

(٢) الحب بكسر الحاء هو الزير، يستقطر الماء من أسفله فيخرج صافياً، ويقول لرشحه: قطر حب

أردتَ اللحاقَ بي فارجعْ مع الليل لنُسْلِمَ أنفسَنا ، وإن آثرتَ الحياةَ فارجعْ مع الصبح لتُسلِمَني إلى غاسلي !

قلت : أفآمِنٌ أنت ألا يكونَ أبوك قد أخرجك عنه لأن عينَيك تُمسكُ يده وتردُّه عما يَهُمّ به ، حتى إذا خلا وجهُه منك أزهق نفسَه ؟

قال : لم أدَعْه حتى أقسمَ أن يحيا إلى الليل ، وحتى أقسمتُ أن أرجع لأموتَ معه ؛ فإن لم تُمسكه عينُه أمسكه انتظاري ، وقد فرغَت الحياةُ منا فلم يبقَ إلا أن نفرغَ منها ؛ ومن كان فيما كنا فيه ثم انحدر إلى ما انحدرنا إليه ، لم يُرِ الناس من نفسه ضعةً ولا استكانة ؛ وإنما خرجتُ لأسألَ هذا الامام (الشعبيّ) وجهاً من الرأي فيمن يقتل نفسه إذا ضاقت عليه الدنيا ، ونزلتْ به النازلاتُ ، وتعذَّر القوت ، واشتدَّ الضُّرّ ، وتدلَّت به المسكنةُ إلى حضيضها ، وأُلجِئَ إلى أحوالٍ دقَّته دقَّ الرَّحى لما تدور عليه ، ولم يَصُدْ له إلا رأيٌ واحد في الدنيا : هو أنه مكذوبٌ مزوَّرٌ على الدنيا .

قلت : يابنيّ . فإني أراك أديباً ؛ فمن أبوك ؟

قال : هو فلان التاجر ، ظهر ظهورَ القمر ومُحِق محاقَه ، وهو اليوم في أحلَكِ الليالي وأشدِّها انطماسا ، جَهَدَه الفقر ، وياليته كان الفقر وحدَه ، بل انتكهته العلل ، وليتها لم تكن إلا العِللَ مع الفقر ، بل أخذ الموتُ امرأتَه فماتت هماً به وبي ، ولم يكن له غيري وغيرُها ، وكان كلٌّ من ثلاثتنا يحيا للاثنين الآخرين ، فهذا ما كان يجعل كلاًّ منا لا يَفرَغُ إلا امتلأ ، ولما ذهبَت الأمُّ ذهبت الحقيقةُ التي كنا نقاتل الأيامَ عنها ؛ وكانت هي وحدها تُرينا الحياةَ بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغة من المعنى ، وكنا من أجلها نفهم الأيام على أنها مجاهَدةُ البقاء ؛ أما الآن فالحياةُ عندنا قَتْلُ الحياة .. !

قلت : يابنيّ ، فإنك والله لحكيم ، وإني لأَنفَسُ بك على الموت ؛ فكيف ردَّتك حياة أمِّك عن قتل نفسك ولا تردُّك حياةُ أبيك ؟

قال : لو بقي أبي حياً لبقيت ، ولكن الدهر قد انتزع منه آخرَ ما كان يملك من أسباب القوة ، حين أخذَ القلبَ الشفيق الذي كان يجعله يتمدد إذا فكَّر في الموت ؛ فهو الآن كالذي يحارب عن نفسه تلقاء عدوٍّ لا يرحمه ؛ إن عجز عن عدوِّه قَتَلَ نفسه ليستريح من تنكيل العدوِّ به

* * *

قال المسيِّب بن رافع : وأدركتُ أن الفتى يُريد من سؤال الشيخ نِحلةً يطمئنُّ إليها أن يموتَ مسلماً إذا قتل نفسَه كالمضطرّ أو المُكرَه ؛ فأشفقتُ أن أكسرَ نفسَه إذا أنا حدَّثته أو أفتيتُه ؛ وقلت : هذا مريضٌ يحتاج العلاجَ لا الفُتيا ؛ وكان إمامُنا (الشعبيُّ) حكيما لحِناً فطِناً سفَر بين أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهلِ الروم ، فحسدنا العاهلُ أن يكون فينا مثلُه . وقلتُ : لعل الله يُحدث به أمراً . فأخذتُ بيد الفتى إليه ، ومشيتُ أكلِّمه وأرُدُّه عن نفسه . وقلت له : أما تدري أنك حين فرغتَ من سرور الحياة فرغتَ من غرورها أيضاً ، وأن الزاهد المنقطعَ في عُرعُرة الجَبل ينظر من صَومعته إلى الدنيا — ليس بأحكَمَ ولا أبصرَ ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا ؟

يابنيّ ، إن الزاهد يحسب أنه قد فرَّ من الرذائل إلى فضائله ، ولكن فراره من مجاهَدة الرذيلة هو في نفسه رذيلةٌ لكل فضائله . وماذا تكون العفّةُ والأمانةُ والصدقُ والوفاء والبرُّ والأحسان وغيرها ، إذا كانت فيمن انقطع في صحراءَ أو على رأس جبل ؛ أيزعم أحدٌ أن الصدق فضيلةٌ في إنسانٍ ليس حوله إلا عشرة أحجار ؟ وايمُ الله إن الخاليَ من مجاهَدةِ الرذائل جميعاً ، لهُو الخالي من الفضائل جميعاً !

يابنيّ ، إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قمْحَ هذه الانسانية : يُنبَتون ويُحصَدون ويُطحَنون ويُعجَنون ويُخبَزون ، ليكونوا غذاءَ الانسانية في بعض فضائلها . وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين كأن في أعراقكما دم نبيّ يُقتَل أو يُطلَب !

قال المسيِّب : وانتهينا إلى دار الشعبيّ ، فطرقتُ الباب ، وجاء الشيخ يفتح لنا ، ، وسلَّمنا وسلَّم ، ثم بَدَرتُ فقلت : يا أبا عمرو ، إن أبا هذا كان من حاله كَيْت وكيت ، فترادفتْ عليه المصائبُ وتوالت النكباتُ وتواترت الأسقام . . . ثم اقتصَصتُ ما قال ابنُه حرفاً حرفاً ، ثم قلت : وإنه الآن

موشكٌ أن يزهقَ نفسه وسيتبعه ابنُه هذا ؛ وقد (هداه الله إليك) فجاء يسألك : أعوت مسلماً من الجن أو كبره واضطر واستضاق واختل ، فتحسّى سماً فهلك ، أو توجأ بحديدة فقعقعى ، أو ذبح نفسه بنصل تخففت ، أو حز في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات ، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه ، أو تردّى من شاهق فطاح . . . ؟

وأدرك الشيخ معنى قولي : (هداه الله إليك) ، ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المترادفة على القتل وما استقصيتُ من وجوهه ؛ فعلم أني لم أسأله الفُتيا والنَّص ، ولكني سألته الحكمة والسياسة ؛ فقال : هذا والله رجلٌ كريم ، أخذته الأنفةُ وعزّةُ النفس ، وما أنا الساعة بمعزلٍ عن همّه ، فنذهب نكلّمه والله المستعان

ومشينا ثلاثتنا ، فلما شارفنا الدار قال الفتى : إنه لايفتح لي إذا رآكما ، وربما استفزّ بنفسه فأزهقها ، وسأتسوّر الحائط وأتدلى ثم أفتح لكما فتدخلان وأنا عنده

***

ودخلنا ، فاذا رجل كالمريض من غير مرض ، خوّارٌ مسلوبُ القوّة ، انزعج قلبه إلى الموت ومابه جُرأة ، وإلى الحياة وما به قوّة ؛ وصفّر اليه نفسه أنها أصبحت في معاملة الناس كالدرهم الزائف لايقبله أحد ، وثار عليه داء الحزن فأضناه وتركهُ روحا تتقمقع في جلدها ، فهي تهُم في لحظة أن تثب وتندلق

وسلّم الشيخُ وأقبل بوجهه على الرجل ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصابرين في البأساءِ والضراءِ وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هُم المتقون »

فقطع عليه الرجل وقال كالمحنق : أيها الشيخ ، قد صبرنا حتى جاء مالا صبر عليه ؛ وقد خلونا من معاني الكلام كله ، فما نقدر عليها إلا لفظة واحدة تملك معناها ، هي أن ننتهي !

ومدّ الشيخُ عينه فرأى كوّةً مسدودة في الجدار ، فقال لي : افتحْ هذه ودع الهواء يتكلم معنا كلامَه . فقمت اليها فعالجتها حتى فتحتها ، ونفذ منها روح الدنيا ، وقال الشيخ للرجل : أصغ إليّ ، فاذا أنا فرغت من الكلام فشأنك بنفسك : أعلمتَ أن رجلا من المسلمين قد مرض ، فأعضل مرضه فأثبته على سريره ثلاثين سنة لايتحرّك ، وطوى فيه الرجلَ الذي كان حياً ونشر منه الرجل الذي سيكون ميّتاً ، فبقي لاحياً ولا ميتاً ثلاثين سنة . . . . ؟

قال الرجل : وفي الدنيا من يعيش على هذه الحال ثلاثين سنة ؟

قال الشيخ : صحح الكلام واسألْ : أيصبر على هذه الحال ثلاثين سنةً ولايقول : (جاء مالا صبر عليه) ! وأيُّ شيء لاصبر عليه عند الرجل المؤمن الذي يعلم أن البلاءَ مالٌ غير أنه لايوضع في الكيس بل في الجسم ؟

أتدري مَن كان الصابرَ ثلاثين سنةً على بلاء الحياة والموت مجتمعَين في عظامٍ مُمَدّدةٍ على سريرها ؟ إنه إمامُنا (عمرانُ ابنُ حصين الخزاعيّ) [1] الذي أرسله عمرُ بن الخطاب يفقّه أهل البصرة ، وتولّى قضاءها وكان الحسن البصريُّ يحلف بالله ماقدِمَها خيرٌ لهم من عمران بن حصين . ولقد دخلتُ عليه أنا وأخوه (العلاء) فرأيناه مثبّتاً على سرير الجريد كأنما شُدّ بالحبال وما شُدّ إلا بانتهاك عصبه وذوبان لحمه ووهن عظامه ؛ فبكى أخوه ، فقال : لِمَ تبكي ؟ قال : لأني أراك على هذه الحال العظيمة ! قال لا تبك ؛ فان أحبّه إلى الله تعالى أحبّه إليّ . ثم قال : إن هذه الأرض تحمل الجبالَ فلا يشعر موضعٌ منها بالجبل القائم عليه ، إذ كان تماسكُ الأرض كلّها قد جعل لكلّ موضعٍ منها قوةَ الجميع ، ولولا هذا لدكّ الجبلُ موضعه وغار به ؛ وكذلك يحملُ المؤمنُ مثلَ الجبال من البلاء على أعضائه لاينكسر لها ولايتهدّم ؛ إذ كانت قوةُ روحه قوّةً في كل موضع ، فالبلاءُ محمولٌ على همّة الروح لاعلى الجسم ، وهذا معنى الخبر : « إن المؤمن بكلّ خيرٍ على كلّ حال ، إن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد اللهَ عزّ وجل ! »

ثم قال : ولكن ذاك هو المؤمن ، فمن آمن بالله فكأنما قال له : « امتحنّي » وكيف تراك إذا كنتَ بطلاً من الأبطال مع قائد الجيش ، أما تفرض عليك شجاعتُك أن تقول للقائد : « امتحني وارمِ بي حيث شئت ! » وإذا رمى بك فرجعتَ مُثْخَناً بالجراح ونالك البترُ والتشويه — أتُراها أوصافاً لمصائبك ، أم ثناءً على شجاعتك ؟

(١) توفي سنة ٥٣ من الهجرة

ثم قال : إذا لم يكن الإيمانُ بالله اطمئناناً في النفس على زلازلها وكوارثها — لم يكن إيماناً ، بل هو دعوى بالفكر أو باللسان لا يَعْدُوها ، كدعوى الجبان أنه بطل ، حتى إذا فَجَأه الرَّوْعُ أحدثَ في ثيابه من الخوف . . . ! ومن ثم كان قَتْلُ المؤمن نفسَه لبلاءٍ أو مرض أو غيرها كفراً بالله وتكذيباً لإيمانه ، وكان عمله هذا صورةً أخرى من طيش الجبان الذي أحدث في ثيابه !

والإيمانُ الصحيحُ هو بشاشةُ الروح ، وإعطاء الله الرِّضى من القلب ، ثقةً بوعده ورجاءً لما عنده ، ومن هذين يكون الاطمئنان . وبالبشاشة والرضى والثقة والرجاء ، يصبح الإيمانُ عقلاً ثانياً مع العقل . فاذا ابتُلِيَ المؤمن بما يذهب معه الصبرُ ويطيشُ له العقل ، وصار من أمره في مثل الجنون — بَرَزَ في هذه الحالة عقله الرُّوحاني وتولى سياسة جسمه حتى يفيق العقل الأول . ويجيء الخوف من عذاب الله ونقمته في الآخرة ، فيغمر به خوف النفس من الفقر أو المرض أو غيرهما ، فيقتتل أقواهما الأضعف ، ويخرج الأعزُّ منهما الأذلَّ

فالاطمئنان بالإيمان هو قتل الخوف الدُّنيويّ بالتسليم والرِّضى ، أو تحويلُه عن معناه بجعل البلاء ثواباً وحسنات ، أو تجريده من أوهامه باعتبار الحياة سائرةً بكل مافيها إلى الموت ، وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأنٌ عظيم في تصريف الدنيا ، يترك النفس راضية مَرْضيّة ، تقول لمصائبها وهي مطمئنة : نعم ، وتقول لشهواتها وهي مطمئنة : لا

وما الإنسان في هذا الكون ، وما خيره وشرُّه ، وما سخطُه ورضاه ؟ إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةً من التراب تتكبّر وقد نسيت أنه سيأتي من يكنسها . . . . !

* * *

قال الشيخ : وانظر ، أما تُبْتَلى الشجرةُ الخضراءُ في بعض أوقاتها بمثل ما يُبْتَلى به الإنسان ، غير أن لها عقلاً روحانياً مستقرًّا في داخلها يُمسك الحياةَ عليها ويَتربّص حالا غير الحال ؛ ومهما يكن من أمر ظاهرها وبلائه فالسعادة كلها في داخلها ، ولها دائماً ربيع على قدرها حتى في قُرِّ الشتاء

فالعقلُ الروحانيّ الآتي من الإيمان ، لا عمل له إلا أن ينشئ للنفس غريزة متصرِّفةً في كل غرائزها ، تُكَمِّل شيئاً وتنقص من شيء ، وتُوَجِّه إلى ناحية وتصرفُ عن ناحية ؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذّاتها جميعاً

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدَر خيره وشرّه ، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا ، فتضع في النكبات معانيَ شريفةً تنزع منها شرّها وأذاها للنفس ، وليست المصيبةُ شيئاً لولا تأذِّي النفس بها . وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عملَ الفضائل ، وتغيّرتْ طبيعتها ، فيعود الفقر باباً من الزهد ، والمرضُ نوعاً من الجهاد ، والخيبة طريقاً من الصبر ، والحزن وجهاً من الرجاء ، وهلمّ جرّا

والنفس وحدها كنزٌ عظيم ، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها ، وما لذّات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج ، فان وجدا مع الفقر بطلتْ عزةُ المال وأصبح حجراً من الحجر ، والبلبل يتغرّد بحنجرته الصغيرة مالا تغني فيه آلاتُ التطريب كلها . وفي النفس حياةُ ما حولها ، فاذا قويتْ هذه النفس أذلت الدنيا ، وإذا ضعفتْ أذلتها الدنيا !

* * *

قال المسيب : ثم سكت الشيخ قليلاً ، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه ، وقد أشرق وجهه ونَضِر وانقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها ، فعادت مصائبه تضغطُ روحاً لينةً كما تضغط اليد على الماء ، وأيقن أن النكبة كلها هي أن ينظر الانسان إلى الحياة بعين شهواته فيُنكب أول ما ينكب في صبره ويقينه

ثم قال الشيخ ، ولقد رأيت بعيني رأسي معجزةَ (العقل الروحاني) وكيف يصنع : رأيت عروة بن الزبير(١) وهو شيخ كبير — عند الوليد بن عبد الملك ، وقد وقعت في رِجْله الأَكلة ، فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسدَه كلَّه ، فدُعي له من يقطعها ، فلما جاء قال له نسقيك الخمر حتى لا تجدَ لها ألما . فقال عروة : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ! قال : فنسقيك المُرْقد . فقال عروة : ما أُحبّ أن أُسلَب عضواً من

(١) توفي سنة ٩٣ للهجرة

أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

ثم دخل رجال أنكرهم عروة ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يُمسكونك ، فان الألم ربما عَزَبَ معه الصبر . قال أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي !

قال الشيخ : فانظر أيها الضعيف الذي يريد قتل نفسه كيف صَنع عروة ، وكيف استقبل البلاء ، وكيف صبر ، وكيف احتمل . إنه انصرف بحسه إلى النفس فانبسطت روحه عليه ، وأخذ يكبر ويهلل ليبقى مع روحه وحدها ، وخرج من دنيا ظاهره إلى دنيا باطنه ، وغُمِرَتْ حواسه وأعصابه بالنور الآلهي من معنى التكبير والتهليل ، فقطعَ القاطعُ كعبه بالسكين وهو لا يلتفت ، حتى إذا بلغ العظم وَضَعَ عليها المنشار ونشرها وعروة في التكبير والتهليل . ثم جيء بالزيت مغلياً في مغارف الحديد فحُسِمَ به مكانُ القطع ، فَغُشِيَ على عروةَ ساعة ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، ولم يسمع منه في كل هذه الآلام الماحقة أنةٌ ولا آهةٌ ، ولم يقل قبلها ولا بعدها ولا بين ذلك : « جاء ما لا صَبرَ عليه ؟ »

* * *

قال المسيب : وأرْهِف بأسُ الرجلِ الضعيف وقوى جأشه وانبعث فيه الروحُ إلى عمر جديد ، ونشأ له اليقين من عقله الروحانيّ وعرف أن ما لا يمكن أن يدرَك ، يمكن أن يترَك

وجاء هذا العقل الروحاني فمرّ بالمنشار على اليأس الذي كان في نفسه فقطعه ، فما راعنا إلا أن وثب الرجل قائماً يقول : الله أكبر من الدنيا ، الله أكبر من الدنيا !

ثم أكب على يد الشيخ وهو يقول : صدقت ؛ « إنْ كلُّ ذلك إلا كما ترى قبضةٌ من التراب تكبر ، وقد نسيتْ أنه سيأتي من يكنسها » (1)

* * *

ماذا يصنع الانسان إذا غلط في مسئلة من مسائل الدنيا إلا أن يتحرّى الصواب ويجتهد في الرجوع اليه ويصبر على ما يناله في ذلك ؟ وماذا يصنع الانسان إذا غلطت فيه مسئلة ... ... ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(1) سنتم القول في الانتحار إن شاء الله في المقال التالي

عصر الخفاء في مصر الاسلامية

٤ ـ الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ في هذا الثبت الدموي الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط ، ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الارهاب في نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل ؛ فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فان إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع . وكانت هذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتخمد الأطماع المتوثبة في مهدها ، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجريء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة الى تأييد سلطانهم ، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة . وقد كانت الأهواء والفورات المنيفة التي تجيش بها نفس الحاكم تمد هذه السياسة الدموية بروح من الاسراف والقسوة ، ولكنها كانت في نظره قبل كل شيء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلا ريب أكبر الأثر في توطيد سلطة الحاكم ، وسحق عناصر الخروج والثورة التي تتربص عادة بأمثال الطغاة المسرفين

هذا ويفسر لنا بعض المؤرخين المسلمين إسراف الحاكم في القتل بأنه كان تقرباً منه « لزحل وطالعه المريخ » ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى (1) ، ولكننا لا نستطيع أن نسيغ هذا الرأي من الوجهة التاريخية ، فليس في

(1) هذا هو قول قزاوغلي في مرآة الزمان (النجوم الزاهرة ص ١٧٧)